الفصل الثالث

يُحَيِّرُني شكل استجابتي للمرأة الحامل، ابنتي، أو ابنة أصدقاء أو معارف، أو امرأة عابرة تلتقطها عيني في الطريق: شعور كأنه الإشفاق، أو التوجس أو الخوف، أو شيء آخر أجد صعوبة في تعريفه؛ لأنه مبهم وغير محدد، ورغم ذلك أعرفه تماما لأنه يتكرر، ليس فقط عندما أتملى البطن المتكور وامتلاء الثديين، بل في لمحة، ترسل العينان فيها إشارتهما البرقية إلى الرأس فتأتي الإجابة الفورية: اضطراب ما، انقباض أو اختلال طفيف في الحركة المنتظمة لعضلة القلب، أو دوار لا يدوم سوى جزء من الثانية، اضطراب بسيط غير ملحوظ، ألحظه.

أستغرب هذا الشعور لأنني أحب الأطفال، واحتفي بتوقع مولود جديد في العائلة، ليس احتفاءً اجتماعيا بل فرح عميق لا يصدر عن فكرة نظرية بتجدد الحياة، ولكن عن خبرة عمر ممتد لرجل أنجب ثلاث بنات واستمتع بحمل أحفاده بين ذراعيه فأيقن أن في الكلام المجرد عن تجدد الحياة تلخيصا دقيقا لوعي البشر بتلك التجربة الأغنى من أي تعريف. فلماذا تصيبني فكرة الحمل بالأسى والارتباك؟! ـ للدقة: لا أسى ولا ارتباك بل فزع مكتوم تتصفى صرخته فلا يصل منها سوى صوت واهن أمر عليه، وأمضي.

أتذكر أمي: بطنها المنتفخ أقرب إلى لغز بلا حل، مدهش ومثير ومحيِّر، يتطلب صبرا لا أملكه. أسأل كثيرا، تقول إن الصغير يتحرك في بطنها ويأكل